الباب الرابع
آداب التالي والمستمع للقرآن
الفصل الأول
آداب تلاوة القرآن

١- طهارة الثوب والبدن والمكان.

قال الإمام السيوطي: «يستحب الوضوء لقراءة القرآن لأنه أفضل الإذكار وقد كان ﷺ يكره أن يذكر الله إلا على طهر كما ثبت في الحديث... وقال أيضا: تسن القراءة في مكان نظيف وأفضله المسجد . وكره قوم القراءة في الحمام[١] والطريق قال النووي: ومذهبنا لا تكره فيهما. قال: وكرهها الشعبي في الحش وبيت الرحا وهي تدور... وقال: يستحب أن يجلس مستقبلاً متخشعاً بسكينة ووقار مطرقاً رأسه»[٢].

٢- الترتيل ومراعاة أحكام التجويد.

قال الله عز وجل: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]. أي تأن في قراءته وتمهل لتتدبر وتتفكر في معانيه، وجاء القوم أرتالاً أي بعضهم في إثر بعض أي شيئاً فشيئا. قال القرطبي في معنى هذه الآية:

«أي لا تعجل بقراءة القرآن بل اقرأه في مهل وبيان مع تدبر المعاني. وقال الضحاك: اقرأه حرفا حرفا. وقال مجاهد: أحب الناس في القراءة إلى الله أعقلهم عنه. والترتيل التنضيد والتنسيق وحسن النظام ومنه ثغر رَتِل ورَتَل، بكسر العين وفتحها:

---

(١) الحمام في الماضي كان يطلق على مكان خاص يجتمع فيه من يريدون الاغتسال والتطهير حيث يتوفر فيه الماء الدافئ والنورة وما يزيل الأوساخ من الجسد، وهذا ما كان يعرف بالحمام الشعبي قديما، وقد أخذه العرب من العجم عند فتح البلاد التي دخلوها، وليس كما يتبادر إلى ذهن البعض من أنه مكان قضاء الحاجة في عصرنا هذا. وقد حذر كثير من العلماء من ارتياد مثل هذه الحمامات لما فيها من محاذير شرعية مثل كشف العورات والنظر إلى المحرمات، ولاسيما أنه يمكن الاستعاضة عنها الآن بحمامات البيوت. والله أعلم.

(٢) الإتقان: (١/ ٢٩٥ – ٢٩٦).

إذا كان حسن التنضيد. وتقدم بيانه في مقدمة الكتاب. وروى الحسن أن النبي ﷺ، مر برجل يقرأ آية ويبكي، فقال: (ألم تسمعوا إلى قول الله عز وجل: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ هذا الترتيل). وسمع علقمة رجلا يقرأ قراءة حسنة فقال: لقد رتل القرآن، فداه أبي وأمي، وقال أبو بكر بن طاهر: تدبر في لطائف خطابه، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبك بفهم معانيه، وسرك بالإقبال عليه. وروى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: (يؤتى بقارئ القرآن يوم القيامة، فيوقف في أول درج الجنة ويقال له اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها) خرجه أبو داود» أ.هـ[١].

وقال فيها ابن كثير: «أي اقرأه على تمهل فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره. وكذلك كان يقرأ ﷺ، قالت عائشة رحمها الله: كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها... وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: لا تنثروه نثر الرمل ولا تهذوه هذّ الشعر، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن هم أحدكم آخر السورة، رواه البغوي»[٢].

وهذه أم سلمة رحمها الله سئلت عن وصف قراءة النبي ﷺ فوصفتها قال: (فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفا)[٣]. أي أنه كان يتلو القرءان بتؤدة وتأني وترتيل حتى كأنك تسمع كل حرفٍ وحده وتميزه عن غيره.

وسُئل أنس رضي الله عنه عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: (كانت مدا. ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد ببسم الله ويمد بالرحمن ويمد بالرحيم)[٤]. فمدها ليبيّن كيفية قراءة المصطفى.

---

(١) تفسير القرطبي: (١٩ / ٢٦).

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/ ٤٣٥).

(٣) رواه الترمذي: (٢٩١٠). وقال: حسن صحيح.

(٤) أخرجه البخاري: (٤٧٥٩).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلا جاء فقال: (قرأت المفصلَ في ركعة فقال ابن مسعود هذّاً كهذِّ الشعر) أي سرعة وتتابع من غير ترتيل وحُسن تلاوة (هذاً كهذّ الشعر إن أقواماً يقرؤون القرءان لا يُجاوز تراقيهم ولكن إذا وقع في القلب فيرسخ فيه نفعٌ)[١].

فهذه هي الغاية من الترتيل: ألا وهي التوقير والإجلال للقرآن وحصول فرصة التدبر والتأمل ومن بعد ذلك حصول فرصة التغير والتأثر بهذا القرءان.

ومن هنا قال ابن عباس رضي الله عنهما: (لأن أقرأ سورة البقرة فأرتلها أحب إلي من أن أقرأ القرآن كله هذرمة)[٢]. أي من غير ترتيل وحُسن تلاوة.

وحسن التلاوة معين على التدبر، يقول ابن كثير في الترتيل: «المطلوب شرعاً إنما هو تحسين الصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهمه».

ويقول النووي في «التبيان»: «وعن معاوية بن قرة رضي الله عنه عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم: يوم فتح مكة على ناقته يقرأ سورة الفتح يرجع في قراءته رواه البخاري ومسلم... وقد نهي عن الإفراط في الإسراع ويسمى الهذرمة فثبت عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رجلا قال له: إني أقرأ المفصل في ركعة واحدة، فقال عبد الله بن مسعود: هكذا هكذا الشعر إن أقواما يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن إذا وقع القلب فرسخ فيه نفع. رواه البخاري ومسلم وهذا لفظ مسلم في إحدى رواياته، قال العلماء: والترتيل مستحب للتدبر ولغيره، قالوا يستحب الترتيل للعجمي الذي لا يفهم معناه، لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيرا في القلب الدعاء لكل مناسبة»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم: (٨٢٢).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: (٤٤٩٠).

(٣) التبيان: (٥٠ – ٥١).

وقارئ القرآن ينبغي له أن لا يتعجل وأن يطمئن في قراءته وأن يرتل ويحسن قراءته، فالمشروع للمؤمن أن يعتني بالقرآن ويجتهد في إحسان قراءته، وتدبر القرآن والعناية بالمعاني ولا يعجل، والعكس صحيح فالقراءة السريعة بعيدة كل البعد عن التدبر كما قال القرطبي: «لا يصح التدبر مع الهذّ».

فمن آداب تلاوة القرآن الكريم أن يعتني بترتيله، قال الله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٤]، وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢].

وأولى ما يدخل في الترتيل، مراعاة أحكام التجويد من إعطاء مخارج الحروف وصفاتها وسائر الأحكام حقها ومستحقها.

٣- تحسين الصوت بالقراءة.

وكما مرّ في الفقرة السابقة ما جاء في صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه سأل عن قراءة النبي ﷺ؟ فقال: «كانت مداً، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد الله -أي: المد الطبيعي حركتين- ويمد الرحمن، ويمد الرحيم». وفي الأثر عن ابن مسعود رضي الله عنه كما أخرجه الآجري: «لا تنثروه نثر الدقل -أي: التمر الرديء- ولا تهذوه كهذ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكون همَّ أحدكم آخر السورة». والترتيل للتدبر يعين عليه، وهو أشد تأثيراً في القلوب، وعلماء القراءة يذكرون أن مراتب الإسراع والبطء في القراءة أربعة[١]:

١- التحقيق. وهو القراءة بتؤدة وطمأنينة بقصد التعليم مع تدبر المعاني ومراعاة الأحكام.

---

(١) الإتقان للسيوطي: (١ / ٢٨٠).

٢- والتدوير. وهو القراءة بحالة متوسطة بين التؤدة والإسراع مع مراعاة الأحكام.

٣- الترتيل. وهو القراءة بتؤدة وطمأنينة لا بقصد التعليم مع تدبر المعاني ومراعاة الأحكام.

٤- الحدر. وهو القراءة بسرعة مع مراعاة الأحكام.

والترتيل: هو الموافق لنص كتاب الله تعالى، والإنسان قد يكون في موضع يريد فيه أن يسرع شيئاً ما، وفي موضع يريد فيه أن يبطئ شيئاً ما، قد يريد مراجعة حفظ سورة -مثلاً- فيُسرع، وقد يريد أن يتدبر أو يبحث عن شيء فيتمهل، فهذه المسألة تعود للمصلحة الشرعية، وقد يريد أن يلقن تلميذاً أو صغيراً فيتمهل معه في الأداء، وقد يريد أن يقرأ لنفسه فيكون أسرع، أما المبالغة في البطء الموجودة في قراء الإذاعات وغيرهم مما تنفر منه أسماع الناس فلا شك أن هذا تكلفٌ مقيت، وقد نهينا عن التكلف[1].

قال النووي في «التبيان»: «حديث سعد بن أبي وقاص وحديث أمامة رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: **«من لم يتغن بالقرآن فليس منا»** رواه أبو داود بإسنادين جيدين وفي

(١) قال ابن حجر في فتح الباري (٩/ ٩١): المدّ عند القراءة على ضربين: أصلي وهو إشباع الحرف الذي بعده: ألف، أو واو، أو ياء، وغير أصلي، وهو ما إذا أعقب الحرف الذي هذه صفته همزة: وهو متصل ومنفصل،فالمتصل ما كان من نفس الكلمة،والمنفصل ما كان بكلمة أخرى،فالأول يؤتى فيه: بالألف، والواو، والياء ممكنات من غير زيادة، والثاني يزاد في تمكين الألف والواو، والياء، زيادة على المد الذي لا يمكن النطق بها إلا به من غير إسراف،والمذهب الأعدل أنه يمدَّ كل حرف منها ضعفي ما كان يمد أولاً،وقد يزاد على ذلك قليلاً،وما فرط فيه فهو غير محمود، والمراد من الترجمة الضرب الأول). قلت: الضرب الأول: المد الطبيعي الأصلي ضابطه في المد يمد حركتين كل حركة بمقدار قبض الإصبع أو بسطها، والضرب الثاني المد غير الأصلي وهو نوعان: متصل يمد أربع حركات ومنفصل: يمد أربع حركات كذلك ويجوز قصره فيمد حركتين). (البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب مدّ القراءة، برقم ٥٠٤٥، ٥٠٤٦).

إسناد سعد اختلاف لا يضر. قال جمهور العلماء معنى لم يتغن: لم يحسن صوته، وحديث البراء رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ: قرأ في العشاء بالتين والزيتون فما سمعت أحدا أحسن صوتا منه رواه البخاري ومسلم، قال العلماء رحمهم الله فيستحب تحسين الصوت بالقراءة ترتيبها ما لم يخرج عن حد القراءة بالتمطيط، فإن أفرط حتى زاد حرفا أو أخفاه فهو حرام» أ.هـ. (١).

٤- الترهيب من القراءة بلحون العجم.

وأما موضوع تلحين القرآن والتطريب التابع لقضية تحسين الصوت، فلابد لنا من وقفة عند هذه المسألة: جاء في الحديث: **«زينوا القرآن بأصواتكم»**، وقال النبي ﷺ لأبي موسى رضي الله عنه: **«لقد مررت بك البارحة وأنت تقرأ، ولقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود»**، فقال أبو موسى: لو أعلم أنك تسمع لحبرته لكَ تحبيراً(٢). فمزامير آل داود؛ آل داود: هو داود نفسه، فإن العرب يقولون: آل فلان. والنبي ﷺ قال: **«اللهم صلِّ على آل أبي أوفى»**، والمقصود بأبي أوفى نفسه الذي جاء بالصدقة.

مزامير آل داود، أي: أن الله أعطى داود صوتاً حسناً، لأن المزمار يطلق في اللغة على الآلة، ويطلق على الصوت الحسن، فمزامير آل داود، أي: صوت داود الحسن، أوتي أبو موسى نصيباً وجزءًا من جمال صوت داود ﷺ؛ لأن داود كان إذا قرأ الزبور: أوبت الجبال معه، والطير تقف في السماء تردد معه من جمال صوته وحسن تلاوته، فليس المقصود المزامير هذه الآلات الموسيقية أو ما شابه ذلك معاذ الله !!

وذكر السيوطي في كتابه «الإتقان» قولان للشافعي أحدهما الكراهة، ثم عقب على ذلك بقوله: «قال الرافعي : فقال الجمهور: ليست على قولين، بل المكروه أن يفرط في

---

(١) التبيان: (٦٢).

(٢) رواه البخاري: (٤٧٦١)، ومسلم: (٧٩٣).

المدّ وفي إشباع الحركات حتى يتولد من الفتحة ألف، ومن الضمة واو، ومن الكسرة ياء، أويدغم في غير وضع الإدغام، فإن لم ينته إلى هذا الحد فلا كراهة.

قال : وفي زوائد الروضة : والصحيح أن الإفراط على الوجه المذكور حرام يفسق به القارئ ويأثم المستمع لأنه عدل به عن نهجه القويم . قال: وهذا مراد الشافعي بالكراهة»[١].

*** أسئلة وأجوبة مختصرة نافعة :**

س: ما معنى قوله: (زينوا القرآن بأصواتكم)؟

ج: قيل: معناه تحسين الصوت.

س: ما معنى: (من لم يتغنَ بالقرآن فليس منا)؟

ج: أي: من لم يتحزن به ويتخشع ويتباكى به ويرفع صوته فليس منا. أما قضية ما يحس به بعض الناس أو يظنه (من لم يتغن بالقرآن فليس منا) أن التغني من الغناء الذي هو الإفراط في التمطيط، والعبث بالمدود، فهذا ليس هو المقصود الشرعي بحال. ولذلك فإن القدر من جمال الصوت الذي يكون الإنسان به قارئاً قراءةً مؤثرة مطلوب، وإذا زاد ووصل إلى متابعة ألحان أهل الفسق والأغاني كما يفعل الآن بعض القراء يقرءون القرآن على ألحان موسيقية، فهؤلاء إذا استمعت إليهم فلا تشعر بأية خشوع، وإنما تكون مأخوذاً بجمال الصوت، أو أن تكون متقززاً من شدة التكلف.

ولذلك ذم النبي ﷺ هؤلاء ذماً عظيماً ؛ بل أخبر أنه سيأتي في آخر الزمان قوم يقرءونه بهذه الصفات بغايةٍ من السوء، ذمهم وأخبر أنه يأتي أحدهم يُقدم، كما جاء في الحديث: «أخاف عليكم ستا: إمارة السفهاء، وسفك الدم، وبيع الحكم، وقطيعة الرحم، ونشوا يتخذون القرآن مزامير، وكثرة الشرط»[٢]. فإن قوله: (نشواً يتخذون

---

(١) الإتقان للسيوطي: (١ / ٣٠٣).

(٢) صححه الألباني في صحيح الجامع عن عوف بن مالك الأشجعي: انظر الصحيحة رقم: (٢١٦).

القرآن مزامير) المقصود بهؤلاء الذين يتكلفون ويتابعون الألحان، ويجعلون القرآن مثل الأغاني، هؤلاء الأشخاص توعدهم النبي ﷺ بوعيدٍ عظيم، وأخبر أنه ربما يأتي بعضهم ويقدم في جمع القوم لا لأنه أفقههم، ولا لأنه أعلمهم، وإنما لأجل أن يغني لهم.

إذاً: الغناء والتطريب والعبث بالمدود والزيادة في الحركات، أو التأوهات، لا شك أنه أمرٌ مذموم، وصاحبه آثم، ولما سُئل الإمام أحمد رضي الله عنه عن القراءة بالألحان؟ قال: هي بدعة، وقد روي عن النبي ﷺ: أنه ذكر في أشراط الساعة: «**بادروا بالأعمال ستا: إمارة السفهاء، وكثرة الشرط، وبيع الحكم، واستخفافا بالدم، وقطيعة الرحم، ونشوا يتخذون القرآن مزامير، يقدمون أحدهم ليغنيهم، وإن كان أقلهم فقها**»[١]، وقوله (ليغنيهم) أي مثل: الغناء.

فيجب أن نفرق بين تحسين القراءة وتجميل الصوت، والخشوع والحزن، وبين أن الإنسان يشابه في قراءته أهل الفسق والأغاني، ويمطط ويتأوه، هذا مذموم ومحرم. أما الترجيع الذي ورد في حديث عبد الله بن المغفل رضي الله عنه قال: (سمعتُ رسول الله ﷺ يوم فتح مكة يقرأ سورة الفتح، فقرأ ابن المغفل ورجّع في قراءته)، وفي لفظٍ قال: (قرأ النبي ﷺ عام الفتح في مسيرٍ له سورة الفتح على راحلته، فرجَّع في قراءته). قال معاوية بن قرة رضي الله عنه: «لولا أني أخاف أن تجتمع عليّ الناس لحكيتُ لكم قراءته»[٢]. وفي بعض الألفاظ قال: (آآآ) - ثلاث همزات وألفات متوالية- فهذا الذي حصل، قيل: إنه كان بسبب الراحلة، لأنها إذا مشت تغير صوت القارئ عليها بحسب ما تمشي عليه من الأرض غير الممهدة.

س: ما حكم أن يقصد الترجيع؟

ج. قالوا: إذا قصده بدون أن يخرج بالقرآن إلى طريقة الألحان والأغاني أو أن يزيد

---

(١) صححه الألباني في صحيح الجامع عن عابس الغفاري: انظر الصحيحة رقم: (٢٨١٢).

(٢) رواه مسلم عن عبد الله بن مغفل في كتاب صلاة المسافرين: (٧٩٤).

بالمدود ويمطط، ويجعل الفتحة ألفاً، والضمة واواً، والكسرة ياء، والياء ياءات، والألف ألفات، فهذا هو التمطيط المذموم المحرم. أما إذا لم يخرج بالترجيع عن ذلك فلا بأس به – أي: اختلاف وتيرة الصوت أثناء القراءة – إذا لم يقصد بها موافقة ألحان الأغاني وزاد في الحروف والحركات ولم يخرجها عن حقيقتها، ومطط فلا بأس أن يتغير وتيرة الصوت طالما لم يقصد هذه الأشياء أو ألحان الأغاني.

وقال الحافظ في الفتح: «معنى الترجيع تحسين التلاوة لا ترجيع الغناء؛ لأن القراءة بترجيع الغناء تنافي الخشوع الذي هو مقصود التلاوة»(١).

قال النووي: «وأما القراءة بالألحان فقد قال الشافعي رضي الله عنه في موضع: أكرهها. قال أصحابنا: ليست على قولين بل فيه تفصيل، إن أفرط في التمطيط فجاوز الحد فهو الذي كرهه، وإن لم يجاوز فهو الذي لم يكرهه. وقال أقضى القضاة الماوردي في كتابه الحاوي: القراءة بالألحان الموضوعة إن أخرجت لفظ القرآن عن صيغته بإدخال حركات فيه أو إخراج حركات منه أو قصر ممدود أو مد مقصور أو تمطيط يخفي به بعض اللفظ ويتلبس المعنى فهو حرام يفسق به القارئ ويأثم به المستمع لأنه عدل به عن نهجه القويم إلى الاعوجاج، والله تعالى يقول: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾، قال وإن لم يخرجه اللحن عن لفظه وقراءته على ترتيله كان مباحا، لأنه زاد على ألحانه في تحسينه هذا كلام أقضى القضاة.

وهذا القسم الأول من القراءة بالألحان المحرمة مصيبة ابتلي بها بعض الجهلة الطغام الغشمة الذين يقرؤون على الجنائز وبعض المحافل وهذه بدعة محرمة ظاهرة، يأثم كل مستمع لها كما قاله أقضى القضاة الماوردي، ويأثم كل قادر على إزالتها أو على النهي عنها إذا لم يفعل ذلك، وقد بذلت فيها بعض قدرتي وأرجو من فضل الله الكريم أن يوفق لإزالتها من هو أهل لذلك وأن يجعله في عافية، قال الشافعي في مختصر المزني:

---

(١) فتح الباري: (٩ / ٩٢).

ويحسن صوته بأي وجه كان. قال: وأحب ما يقرأ حدرا وتحزينا. قال أهل اللغة: يقال حدرت بالقراءة إذا أدرجتها ولم تمططها، ويقال: فلان يقرأ بالتحزين إذا رقق صوته. وقد روى ابن أبي داود بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قرأ إذا الشمس كورت يحزنها شبه الرثاء» أ.هـ. (١).

٥- التخشع وترك التكسر والتميع في القراءة.

ومن آداب تلاوة القرآن كذلك تفخيم التلاوة، ومعنى التفخيم: أي: أنه لا يقرأه بصوتٍ كصوت النساء إذا كان رجلاً مثلاً، وإنما يفخمه إذا كان رجلاً يقرأ كل شخصٍ بطبيعته، الرجل بطبيعته، والمرأة بطبيعتها، وإنما المقصود أنه لا يتشبه بالنساء، أو بميوعة في الكلام عند تلاوته، وممن ذكر ذلك الزركشي رضي الله عنها في كتابه «البرهان».

وقال النووي في «التبيان» يصف فيها حال الصحابة والسلف الصالح سواء عند التلاوة أو الاستماع فقال: «وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه صلى بالجماعة الصبح فقرأ سورة يوسف فبكى حتى سالت دموعه على ترقوته. وفي رواية أنه كان في صلاة العشاء فتدل على تكريره منه وفي رواية أنه بكى حتى سمعوا بكاءه من وراء الصفوف وعن أبي رجاء قال رأيت ابن عباس رضي الله عنهما وتحت عينيه مثل الشراك البالي من الدموع» أ.هـ(٢).

٦- التلاوة بين الجهر والإسرار.

ومن آداب التلاوة: التلاوة بين الجهر والإسرار، أما قضية الجهر بالقرآن فقد سبق فيه أحاديث، مثل قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيحين: «**ما أذن الله لشيء ما أذن لنبيٍ حسن**

(١) التبيان: (٦٣)، شرح النووي على صحيح مسلم: (٦ / ٣٢٨)، فتح الباري لابن حجر: (٧ / ٧٢).
(٢) التبيان: (٤٩).

الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به»، ومن الجهة الأخرى ورد قوله ﷺ: **«الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة»**. فكيف نجمع إذاً بين مدح الجهر الوارد في حديث الصحيحين، وبين مدح الإسرار الوارد في حديث الترمذي وأبي داود والنسائي؟

قال النووي رضي الله عنهما: «الجمع بينهما أن الإخفاء أفضل حيث خاف الرياء أو تأذى المصلون ؛ كالداخلين إلى المسجد ليصلوا تحية المسجد أو السنة الراتبة ورجل يقرأ القرآن، فإذا جهر هذا الذي يقرأ لبَّس على المصلين بجهره، فيكون الإسرار أفضل. إذاً: حيث خاف الرياء يُسر، أو تأذى غيره بجهره فيسر، والجهر أفضل في غير ذلك ؛ لأن العمل فيه أكثر، ففيه رفع للصوت، وبذل للطاقة والجهد، ولأنه يوقظ قلب القارئ، ويصرف سمعه إليه، أي: القارئ ذاته يستفيد ويركز أكثر، وإذا رفع صوته يكون أجمع لقلبه على القراءة، وأبعد للشيطان، ويطرد النوم، ويزيد في النشاط»[(١)].

وهذا ما أكده السيوطي أيضا بقوله: «وقال بعضهم: يستحب الجهر ببعض القراءة والإسرار ببعضها، لأن المسر قد يمل فيأنس بالجهر، والجاهر قد يكل فيستريح بالإسرار»[(٢)].

أما إذا وصل إلى درجة الإزعاج والتشويش، فإنه ينطبق عليه ما جاء في حديث النبي ﷺ: **«ألا إن كلكم مناجٍ لربه، فلا يؤذين بعضكم بعضاً، ولا يرفع بعضكم على بعضٍ في القراءة»**[(٣)]، وقد يجهر الإنسان فترة ثم يتعب فيخفض صوته ثم يجهر مرةً أخرى إذا تنشط فهذا لا حرج فيه. كما إذا واصل القراءة لساعة أو ساعتين، فقد يجهر ثم يتعب فيخفض صوته، ثم يجهر فهذا لا بأس به أيضاً، وكان أبو بكر رضي الله عنه يُسر

---

(١) التبيان: (٥٩) وما بعدها بتصرف.

(٢) الإتقان للسيوطي: (١ / ٣٠٤).

(٣) رواه أبو داود عن أبي سعيد: (١٣٣٢)، وأحمد في المسند: (١١٤٨٦).

وعمر رضي الله عنه يجهر، فسئل أبو بكر، فقال: «قد أسمعت من ناجيت»، وسئل عمر فقال: «أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان» أي: النعسان، فأمر أبو بكر أن يرفع شيئاً ما، وأمر عمر أن يُخفض شيء ما[١].

فإذا خشي الرياء أسر ولا شك، وإذا كان يعلم أو يريد أن يقتدي به الآخرون - مثلاً - فلا شك أنه إذا جهر ودعا الناس للعمل، أي: بالقدوة إلى القراءة، فإن هذا المقصد الشرعي منه يؤجر عليه.

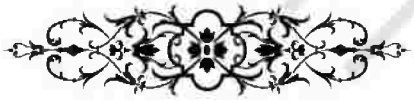

(١) تفسير تفسير ابن كثير: (٣/ ٦٨)، تفسير القرطبي: (١٠/ ٢٢٣)، تفسير فتح البيان: (٧/ ٤٦٩).

obeikandl.com

الفصل الثاني
آداب الاستماع لتلاوة القرآن الكريم

١ - الإنصات والسكون عند التلاوة.

مما يعين على الفهم ويدل على تعظيم القول وتوقير القرآن: الإنصات وسكون الجوارح عند تلاوة القرآن، فمن سكنت جوارحه خشع قلبه وحضر عقله، وإذا كان الناس يحترمون قول المتكلم على حسب رتبته وعظمته وقوته في الدنيا، ولله المثل الأعلى فهل هناك أعظم من حرمة كلام الله حتى نصغي إليه بآذاننا؟؟

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، يقول القرطبي في تفسيرها: «قال النقاش: أجمع أهل التفسير أن هذا الاستماع في الصلاة المكتوبة وغير المكتوبة ... والإنصات: السكوت للاستماع والإصغاء والمراعاة» أ.هـ[١].

وقال الطبري: «يقول تعالى ذكره للمؤمنين به المصدقين بكتابه الذين القرآن لهم هدى ورحمة: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ﴾ عليكم أيها المؤمنون، ﴿ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ ﴾ يقول: أصغوا له سمعكم لتتفهموا آياته وتعتبروا بمواعظه وأنصتوا إليه لتعقلوه وتتدبروه، ولا تلغوا فيه فلا تعقلوه. ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ يقول: ليرحمكم ربكم باتعاظكم بمواعظه، واعتباركم بعبره، واستعمالكم ما بينه لكم ربكم من فرائضه في آيه»[٢].

قال الضحاك بن مزاحم: أول باب من العلم: الصمت، والثاني: استماعه، والثالث: العمل به، والرابع: نشره وتعليمه[٣].

---

(١) تفسير القرطبي: (٧/ ٢٢٤).

(٢) تفسير الطبري: (٤/ ٢٥).

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: (١/ ٢٩٣).

٢- البكاء أو التباكي.

القرآن كلام الله تبارك وتعالى، وكلامه عز وجل لايقاس بكلام خلقه، لذا فلابد أن يكون له أثره على المؤمنين به الموقنين بأنه كلام الخالق جل وعلا، وقد ذكر تبارك وتعالى في غير ما آية حال من يتأثرون بكلام الله ويبكون عند سماعه، فأخبر تبارك وتعالى أن هذا شأن الأنبياء من قبل فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

وأخبر أن هذا شأن الذين آتاهم العلم من قبل فقال: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٦-١٠٩].

* **البكاء على أنواع:** ذكر ابن القيم أنواعا كثيرة للبكاء وصلت إلى عشرة ومنها :

١- منه ما يكون بكاء رحمة ورقة.

٢- ومنه ما يكون بكاء خوف وخشية.

٣- ومنه ما يكون بكاء محبة وشوق.

٤- ومنه ما يكون بكاء فرح وسرور.

٥- ومنه ما يكون بكاء حزن وجزع.

فالبكاء المطلوب عند تلاوة القرآن هو بكاء الخشوع وليس بكاء النفاق، وليس البكاء المستعار، أما التباكي فهو تكلف البكاء.

فالبكاء عرفنا دليله من الكتاب والسنة، وعرفنا أن البكاء عند قراءة القرآن يكون بكاء خشوع وليس بكاء نفاق، مثل التظاهر بالبكاء لأجل أن يقول الناس عنه: إنه خاشع، وإنما هو بكاء خشوع، لو سمعه الشخص ارتاح إليه، كما قال النبي ﷺ في

الحديث: «**إن من أحسن الناس صوتا بالقرآن الذي إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله**»(١).

أما بالنسبة للتباكي فإنه ينقسم إلى: تباكي محمود، وتباكي مذموم:

١- التباكي المحمود: هو الذي يستجلب رقة القلب وخشية الله، وليس تباكي الرياء والسمعة، مثلما قال عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ وقد رآه يبكي هو وأبو بكر في شأن أسرى بدرٍ: (أخبرني ما يبكيك يا رسول الله، فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد تباكيت لبكائكما)(٢) ولم ينكر عليه النبي ﷺ، لكن هناك عبارة وردت في كلام بعض السلف: «ابكوا من خشية الله، فإن لم تبكوا فتباكوا».

٢- أما التباكي المذموم: هو الذي يجلب ويستجلب به حمد الخلق وثناءهم عليه، فيتظاهر بالبكاء أمام الناس، فهذا تباكي نفاق. كما أن هناك بكاء نفاق وهناك تباكي نفاق، ولابد من شيء من التفصيل في موضوع البكاء عند تلاوة القرآن الكريم، أو عند سماعه.

لا شك أن النبي ﷺ كان يبكي عند تلاوة القرآن وليس يعني ذلك أنه كان يبكي دائماً، لكن كان يعرض له البكاء عند تلاوة القرآن وعند سماعه، كما جاء في حديث مطرف بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنه قال: (أتيتُ النبي ﷺ وهو يصلي، ولجوفه أزيزٌ كأزيز المرجل) (٣)، أي: يبكي؛ لأن الأزيز هو صوت البكاء، ولكنه يخرج من الجوف، فهو صوتٌ مكتوم، والمرجل: الإناء الذي يُغلى فيه الماء، فكيف يكون صوت الإناء الذي يغلى فيه الماء؟! فهكذا كان صوته ﷺ وهو يصلي ويقرأ القرآن، فيجيش جوفه ﷺ ويغلي من البكاء من خشية الله تعالى.

---

(١) رواه ابن ماجة عن جابر: (١٣٣٩) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه: (١١٠٩).

(٢) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير: (١٧٦٣).

(٣) رواه أبو داود عن مطرف بن عبد الله عن أبيه: (٩٠٤)، والنسائي: (١١٣٦).

والصحابة رضي الله عنهم ثبت كذلك عنهم أنهم كانوا يبكون عند قراءة القرآن الكريم، وقصة أبي بكر رضي الله عنه معلومة في مرض وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، قالت عائشة رحمها الله: «إنه رجلٌ رقيق، إذا قرأ غلبه البكاء»، وفي رواية: «إن أبا بكر رجلٌ أسيف، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس» وكذلك عندما كان في مكة يُصلي بفناء داره ويجتمع إليه نساء المشركين وأبناؤهم، وكان رجلاً بكاءً لا يملك دمعة رضي الله عنه. وعمر بن الخطاب رضي الله عنه سُمع نشيجه من وراء الصفوف، لما قرأ قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] حتى سالت دموعه على ترقوته.

قال القرطبي في تفسيره: «وروي عن الحسن قال: لما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشام أتاه راهب شيخ كبير متقهل، عليه سواد، فلما رآه عمر بكى. فقال له: يا أمير المؤمنين، ما يبكيك؟ قال: هذا المسكين طلب أمرا فلم يصبه، ورجا رجاء فأخطأه، وقرأ قول الله عز وجل: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ﴾. قال الكسائي: التقهل: رثاثة الهيئة، ورجل متقهل: يابس الجلد سيء الحال» أ.هـ[1].

وقال الإمام السيوطي في «الإتقان»: «يستحب البكاء عند قراءة القرآن والتباكي لمن لا يقدر عليه والحزن والخشوع، قال تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا﴾، وفي الصحيحين حديث قراءة ابن مسعود رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم وفيه: فإذا عيناه تذرفان.... ثم قال: قال في شرح المهذب : وطريق في تحصيل البكاء أن يتأمل ما يقرأ من التهديد والوعيد الشديد والمواثيق والعهود ثم يفكر في تقصيره فيها فإن لم يحضره عند ذلك حزن وبكاء فليبك على فقد ذلك فإنه من المصائب »[2].

---

(١) تفسير القرطبي: (٢٠ / ٢٠).

(٢) الإتقان: (١ / ٣٠١ – ٣٠٢).

* أحوال الصحابة والسلف عند قراءة أو سماع القرآن :

عمر رضي الله عنه كتب إلى رجل سمع أنه يشرب الخمرَ فكتب إليه: من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان، فسلامٌ عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير، ولما بلغ الرجل كتاب عمر جعل يقرأ ويردد، ويقول: غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، قد حذرني عقوبته، ووعدني أن يغفر لي، فلم يزل يرددها على نفسه، ثم بكى ونزع مما كان فيه من شرب الخمر(١).

وعائشة رحمها الله مرَّ عليها القاسم وهي تقرأ: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٧] ترددها وتبكي وتدعو. وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما لما قرأ: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق: ١٩] جعل يرتل ويكثر النشيج. وهذا عبد الله بن عمر رضي الله عنهم ما يقرأ قول الله عز وجل: ﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٤] إلا كان يبكي، وكذلك قال نافع عنه في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحديد: ١٦].

فالبكاء ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وكذلك عن التابعين، فكان عمر بن عبد العزيز، مرة يقرأ قول الله: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ [القارعة: ٤-٥] بكى. وكذلك: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ [الليل: ١٤] ، وكذلك في آية: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ [الصافات: ٢٤]، ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [الفرقان: ١٣]. الفضيل بن عياض وابنه عليّ وغيرهم من علماء السلف وزُهّادهم كانوا يبكون عند قراءة القرآن الكريم، وحتى النساء كما ذكرنا عائشة رحمها الله.

---

(١) تفسير ابن كثير: (٤ / ٧١).

لكن هل البكاء يصل إلى درجة الصياح والصراخ؟! الجواب: لا، ولذلك فإن مسألة الصياح والصعق الموجودة عند بعض الفرق الضالة، لا شك أنها من البدع. قال شيخ الإسلام رضي الله عنها: وما يحصل عند السماع والذكر المشروع من وجل القلب، ودمع العين، واقشعرار الجسوم، فهذا أفضل الأحوال التي نطق بها الكتاب والسنة. أما الاضطراب الشديد والغشي والموت والصيحات، فهذا إن كان صاحبه مغلوباً عليه لم يُلم عليه - مغلوب: أي: حدث رغماً عنه وهو لم يقصد ذلك ولم يتكلف - لم يُلم عليه، كما قد يكون في التابعين ومن بعدهم، فإن منشأه قوة الوارد على القلب مع ضعف القلب، أي: يكون الوارد عليه في الآية فيها معانٍ عظيمة لم تتحملها نفسه، قلبه أضعف أن يتحملها، أو يمكن أن يموت أو يغشى عليه.

والصحابة كان الوارد والمحل عندهم قوياً، ولذلك لم ينقل عنهم أن واحداً منهم مات أو صعق، وإنما التعليل لمن جاء بعدهم من الصالحين الذي كان يغشى على الواحد منهم أو يموت، سببه أن الوارد أقوى من المحل، فيرد وارد قوي على محل فيه ضعف أو أضعف من الوارد، فيحدث ما يحدث من الصعق أو الموت.

وأما ظاهرة ارتفاع الأصوات بالبكاء فإن هذا يؤذي الناس ويشق عليهم، ويشوش على المصلين وعلى القارئ. بل إن بعض المصلين قد لا يستطيع أن يفهم قراءة القرآن من الإمام، ولا يسمع صوته من زعيق وصياح بعض الناس، وهذا ليس من الخشوع في شيء، وليس من طريقة النبي ﷺ ولا الصحابة، بل كان بكاؤه ﷺ بكاءً مكتوماً ما كان صياحاً وزعيقاً، والروايات المذكورة عن بكائه وبكاء أصحابه تقول: كان يُسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء، فقوله: يُسمع لصدره وليس يُسمع لحلقه، فالبكاء يخرج من الصدر وليس من الحلق بالصياح والضجيج المنافي للخشوع وكمال الدب في حضرة الرب سبحانه أثناء الصلاة.

والذي ينبغي للمؤمن أن يحرص عليه هو أن يكتم حاله مع الله وألا يسمع صوته

بالبكاء لأحد، ويحذر من الرياء، فهذا هو مراد الشيطان ليحبط بذلك عمله، كما أنه ليس له أن يشوش على المصلين بصوته، وأما ما يحدث لبعض الناس وليس ذلك باختياره بل يغلب عليه من غير قصد، فهذا معفوٌ عنه إذا كان بغير اختياره، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه كان إذا قرأ يكون لصدره أزيزٌ كأزيز المرجل من البكاء، وجاء في قصة أبي بكر أنه كان إذا قرأ لا يُسْمِع الناس من البكاء.. إلى آخره، ولكن هذا ليس معناه أنه يتعمد رفع صوته بالبكاء، وإنما شيء يغلب عليه من خشية الله عز وجل.

يقول ابن القيم في زاد المعاد يصف بكاء النبي ﷺ: «ولم يكن النبي ﷺ يبكي بشهيق ورفع صوت، كما لم يكن ضحكه قهقهةً، ولكن كانت تدمع عيناه حتى تهملان، ويسمع لصدره أزيز، وكان بكاؤه: تارة رحمة للميت، وتارة خوفاً على أمَّتِهِ وشفقة عليها، وتارة خشيةً لله تعالى، وتارة عند سماع القرآن، وهو بكاءُ اشتياقٍ ومحبةٍ وإجلال» أ.هـ(١).

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه أنه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطُّور، فلمَّا بلغ هذه الآية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ [الطور: ٣٥- ٣٧]، كاد قلبي أن يطير وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي. متفق عليه(٢)، وهذا من أعظم البراهين على تأثير القرآن في القلوب.

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

قال القرطبي في تفسيرها: «وصف الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بالخوف

---

(١) زاد المعاد لابن القيم: (١/ ١٨٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، سورة الطور رقم: (٤٨٥٤)، وما بين المعقوفين من الطرف رقم: (٤٠٢٣) من كتاب المغازي، وأخرجه مسلم بنحوه في كتاب الصلاة باب القراءة في الصبح برقم: (٤٦٣).

والوجل عند ذكره. وذلك لقوة إيمانهم ومراعاتهم لربهم، وكأنهم بين يديه. ونظير هذه الآية ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥]. وقال: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨]. فهذا يرجع إلى كمال المعرفة وثقة القلب. والوجل: الفزع من عذاب الله فلا تناقض. وقد جمع الله بين المعنيين في قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]. أي تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله وإن كانوا يخافون الله. فهذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق والزئير ومن النهاق الذي يشبه نهاق الحمير. فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجد وخشوع: لم تبلغ أن تساوي حال الرسول ولا حال أصحابه في المعرفة بالله، والخوف منه، والتعظيم لجلاله ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفا من الله. ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]. فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم. ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقتهم فمن كان مستنا فليستن، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسهم حالا والجنون فنون. روى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن الناس سألوا النبي ﷺ حتى أحفوه في المسألة، فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال: «سلوني لا تسألوني عن شيء إلا بينته لكم ما دمت في مقامي هذا». فلما سمع ذلك القوم أرموا ورهبوا أن يكون بين يدي أمر قد حضر. قال أنس: فجعلت ألتفت يمينا وشمالا فإذا كل إنسان لاف رأسه في ثوبه يبكي. وذكر الحديث. وروى الترمذي وصححه عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب. الحديث. ولم يقل: زعقنا ولا رقصنا ولا زفنا ولا قمنا» أ.هـ[1].

---

(١) تفسير القرطبي: (٧/ ٢٣٢ – ٢٣٣).

٣- اليقظة والتدبر.

كسر قفل القلب شرط لإشراق القلب ودخول النور إليه، فقد نعى الله على قوم أنهم لهم قلوب لا يعقلون بها، فالتدبر ثمرته الخشوع ورقة القلب ودمع العين، وإنه لا خير في قراءة لا تدبر فيها.

ومن أعظم آداب تلاوة القرآن الكريم التدبر والتأمل في معاني مايتلوه، قال النووي: «فإذا شرع في القراءة فليكن شأنه الخشوع والتدبر عند القراءة والدلائل عليه أكثر من أن تحصر وأشهر وأظهر من أن تذكر، فهو المقصود المطلوب، وبه تنشرح الصدور وتستنير القلوب، قال الله عز وجل: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩] والأحاديث فيه كثيرة وأقاويل السلف فيه مشهورة.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «ألا أنبئكم بالفقيه حق الفقيه؟ من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يرخص لهم في معاصي الله، ولم يؤمنهم مكر الله، ولم يترك القرآن إلى غيره، ولا خير في عبادة ليس فيها تفقه، ولا خير في تفقه ليس فيه تفهم، ولا خير في قراءة ليس فيها تدبر»(١).

قال الزركشي في «البرهان»: «وإن هو مر بآية فيها نداء للذين آمنوا فقال يأيها الذين آمنوا وقف عندها، وقد كان بعضهم يقول لبيك ربى وسعديك ويتأمل ما بعدها مما أمر به ونهى عنه، فيعتقد قبول ذلك فإن كان من الأمر الذى قد قصر عنه فيما مضى اعتذر عن فعله فى ذلك الوقت واستغفر ربه فى تقصيره.

وذلك مثل قوله يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا، وعلى كل أحد أن ينظر فى أمر أهله فى صلاتهم وصيامهم وأداء ما يلزمهم فى طهاراتهم... وحيض النساء ونفاسهن، وعلى كل أحد أن يتفقد ذلك فى أهله ويراعيهم بمسألتهم عن ذلك، فمن

(١) أخلاق العلماء: (٥٥).

كان منهم يحسن ذلك كانت مسألته تذكيرا له وتأكيدا لما فى قلبه، وإن كان لا يحسن كان ذلك تعليما له. ثم هكذا يراعى صغار ولده ويعلمهم إذا بلغوا سبعا أو ثمانى سنين، ويضربهم إذا بلغوا العشر على ترك ذلك، فمن كان من الناس قد قصر فيما مضى اعتقد قبوله والأخذ به فيما يستقبل، وإن كان يفعل ذلك وقد عرفه فإنه إذا مر به تأمله وتفهمه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾، فإذا قرأ هذه الآية تذكر أفعاله فى نفسه وذنوبه فيما بينه وبين غيره من الظلامات والغيبة وغيرها، ورد ظلامته واستغفر من كل ذنب قصر فى عمله، ونوى أن يقوم بذلك ويستحل كل من بينه وبينه شيء من هذه الظلامات، من كان منهم حاضرا وأن يكتب إلى من كان غائبا، وأن يرد ما كان يأخذه على من أخذه منه فيعتقد هذا فى وقت قراءة القرآن، حتى يعلم الله تعالى منه أنه قد سمع وأطاع.

فإذا فعل الإنسان هذا كان قد قام بكمال ترتيل القرآن، فإذا وقف على آية لم يعرف معناها يحفظها حتى يسأل عنها من يعرف معناها، ليكون متعلما لذلك طالبا للعمل به.

وإن كان ما يقرؤه من الآى فيما قصص الله على الناس من خبر من مضى من الأمم، فلينظر فى ذلك وإلى ما صرف الله عن هذه الأمة منه، فيجدد لله على ذلك شكرا، وإن كان ما يقرؤه من الآى مما أمر الله به أو نهى عنه أضمر قبول الأمر والائتمار والانتهاء عن المنهى والاجتناب له.

فإن كان ما يقرؤه من ذلك وعيدا وعد الله به المؤمنين فلينظر إلى قلبه فإن جنح إلى الرجاء فزعه بالخوف، وإن جنح إلى الخوف فسح له فى الرجاء، حتى يكون خوفه ورجاؤه معتدلين فإن ذلك كمال الإيمان» أ.هـ[1].

---

(١) البرهان للزركشي: (٢ / ٨٢ – ٨٤).

٤- نية العمل والدعوة.

المقصود الأعظم من نزول القرآن على قلب النبي ﷺ هو العمل به وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فليس القصد هو التلاوة المجردة دون وعي وتدبر ودون عمل وتطبيق ناهيك عن الدعوة إلى القرآن، فهو الرسالة الخاتمة للبشرية إلى يوم القيامة، والتي كُلفت هذه المة بتبليغها للعالمين نيابة عن نبيها الخاتم ﷺ، وبهذه الخصيصة صارت خير أمة أخرجت للناس.

بعض الناس جعل همه الأوحد هو إتقان التلاوة وتحصيل السند في القراءة، ولم يلتفت إلى سلوكه وأخلاقه التي قد تظهر أبعد ما تكون عما يتلوه ويقرأه آناء الليل وأطراف النهار، فهذا يكون القرآن حجة عليه لا له، لأن القرآن يشفع فقط لأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا.

كم من مرة في القرآن جاء الربط بين الإيمان والعمل، فالعمل برهان الإيمان ودليل الإيقان، فتسمع مرات عديدة آيات تقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ وأخرى تقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، وثالثة تقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ثم يتبع هذا النداء أمر بفعل أو ترك، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فأوعها سمعك فإنه خير ما يأمر به أو شر ينهى عنه[١].

روى البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: **«بلغوا عني ولو آية»**[٢].

من حق القرآن علي من تعلمه أن يعلمه غيره، روي البخاري عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«خيركم من تعلم القرآن وعلمه»** وقد سبق تخريجه.

---

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٢٠٠).

(٢) رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص: (٣٢٧٤).

ويظهر جمال نور القرآن حينما يخالط القلوب، فيغير ضلالها إلى هدى وعصيانها إلى طاعة، حتى إن جمال نوره جعل الجن يستمعون إليه ثم يولون إلى قومهم منذرين، وسجل القرآن الكريم ذلك فقال: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١-٢]. وبعد استماعهم لآيات القرآن الهادية إلى طريق الله المستقيم أنذروا بها قومهم فقالوا: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١].

فعلى المستمع أن ينوي العمل بما يسمع، وأن ينوي تبليغه للآخرين ودعوة الناس إليه حسب علمه وطاقته. فالدعوة إلى الله عمل الأنبياء وأتباع الأنبياء، وهي من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله، لأن فيها إنقاذ العباد من الضلال، ودلالتهم على فوزهم ونجاتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

روى مسلم عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من دل على خير فله مثل أجر فاعله**»(١)، وروى أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا. ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا**»(٢).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (والذي نفسي بيده، إن حق تلاوته أن يُحِلَّ حلاله ويحرم حرامه ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئا على غير تأويله)(٣).

---

(١) رواه مسلم عن أبي مسعود الأنصاري: (١٨٩٣).

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة: (٢٦٧٤).

(٣) تفسير ابن كثير: (١ / ٤٠٣).

٥- الاعتدال في الهيئة والكف عن اللغو.

قال النووي: «ومما يعتنى به ويتأكد الأمر به احترام القرآن من أمور قد يتساهل فيها بعض الغافلين القارئين مجتمعين، فمن ذلك اجتناب الضحك واللغط والحديث في خلال القراءة إلا كلاما يضطر إليه، وليمتثل قد قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾. وليقتد بما رواه ابن أبي داود عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان إذا قرأ القرآن لا يتكلم حتى يفرغ منه ذكره في كتاب التفسير في قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾.

ومن ذلك العبث باليد وغيرها، فإنه يناجي ربه سبحانه وتعالى فلا يعبث بين يديه، ومن ذلك النظر إلى ما يلهي ويبدد الذهن.

وأقبح من هذا كله النظر إلى ما لا يجوز النظر إليه كالأمرد[١] وغيره، فإن النظر إلى الأمرد الحسن من غير حاجة حرام سواء كان بشهوة أو بغيرها، سواء أمن الفتنة أو لم يأمنها، هذا هو المذهب الصحيح المختار عند العلماء وقد نص على تحريمه الإمام الشافعي ومن لا يحصى من العلماء، ودليله قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾، ولأنه في معنى المرأة، بل ربما كان بعضهم أو كثير منهم أحسن من كثير من النساء، ويتمكن من أسباب الريبة فيه ويتسهل من طرق الشر في حقه ما لا يتسهل في حق المرأة، فكان تحريمه أولى، وأقاويل السلف في التنفير منهم أكثر من أن تحصى» أ.هـ[٢].

عن الحسن قال: «إن كان الرجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يرى ذلك في تخشعه وبصره ولسانه ويده وزهده، وإن كان الرجل ليطلب الباب من أبواب العلم، فيعمل به، فيكون خيرا له من الدنيا وما فيها، لو كانت له فجعلها في الآخرة»[٣].

---

(١) الأمرد: هو من لا لحية له كالصبي والشاب الصغير، فقد تبدو صورته حسنة جميلة يفتتن بها من لا روع ولا تقوى له، ومن هنا حرم كثير من العلماء الخلوة بالأمرد، كما نهوا عن النظر إليه بشهوة.

(٢) التبيان: (٥٢).

(٣) أخلاق العلماء: (٥٣).

٦- النهي عن شرب الدخان والمسكرات وسائر المحرمات تعظيما لحرمة القرآن

مجلس تلاوة القرآن مجلس ذكر تحضره الملائكة، وتنزل فيه الرحمة، وتغشى الحاضرين السكينة، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، والدليل على التقوى هو توقير القرآن الكريم عند استماعه وتلاوته، وتعظيم شعائر الله من تقوى القلوب، يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وإذا كان هناك أمر بعدم القرب من المسجد لمن أكل الثوم والبصل وفيهما ما فيهما من المنافع والفوائد كما روى البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلنا أو ليعتزل مسجدنا وليقعد في بيته**»(١). وعلة التحريم هي كراهة الرائحة وإيذاء المسلمين بها، فلا شك أن رائحة الدخان أشد كراهة وأذى.

فإذا كان قد وجب علينا تعظيم بيوت الله عز وجل، فإن تعظيم كتاب الله عز وجل من باب أولى تلاوةً وسماعاً، وإذا ورد النهي عن قرب المساجد لمن أكل الثوم والبصل فمن باب أولى لمن شرب الدخان، ولا سيما وأن الفتوى قد استقرت على تحريم شرب الدخان لما له من ضرر بالغ على الصحة وإتلاف المال في غير منفعة.

وإذا كان هذا الأمر في شأن التدخين فهو في شأن المسكرات وسائر المحرمات أشد حرمة، وقد استشرت هذه العادة القبيحة خاصة في أماكن العزاء حيث يقرأ القارئ للقرآن الكريم وهناك من يتحدث مع أصحابه أو يتناجى مع من بجواره ويجمع مع الحديث شرب الدخان.

وإذا كان من آداب التلاوة السواك وتطهير الفم ونظافة الثوب وطهارة المكان، كل ذلك تعظيما لحرمة القرآن، فكيف يستقيم هذا كله مع شرب الدخان أثناء التلاوة وهو مناف للإنصات وحسن الاستماع والتدبر والفهم للعمل والتطبيق؟؟!!

---

(١) رواه البخاري عن جابر: (٦٩٢٦)، ومسلم: (٥٦٤).

الفصل الثالث
توقير أهل القرآن والتحذير من إيذائهم

يكفي حامل القرآن شهادة النبي ﷺ له، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ بعث بعثا فدعاهم فجعل يقول للرجل ما معك من القرآن يا فلان؟ قال: كذا وكذا فاستقرأهم بذلك حتى مر على رجل معهم هو من أحدثهم سنا، فقال ماذا معك يا فلان؟ قال كذا وكذا وسورة البقرة، فقال له النبي ﷺ: **«أمعك سورة البقرة؟»** قال: نعم، قال: **«اذهب فأنت أميرهم»**. قال رجل من أشرافهم يا رسول الله والله ما منعني أن أتعلم القرآن إلا خشية أن أرقد ولا أقوم به، فقال له النبي ﷺ: **«تعلموا القرآن فاقرؤوه وارقدوا فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكا تفوح ريحه من كل مكان ومثل من تعلمه فرَقَد وهو في جوفه كمثل الجراب أوكي على مسك»**[(١)].

وهذه نصوص تؤكد على حرمة أهل القرآن وتوقيرهم وإنزالهم منزلتهم اللائقة بهم، وعلى كل مسلم أن يوقر أهل القرآن فهذا من إجلال الله تعالى.

١- عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن لله تعالى أهلين من الناس»**. قالوا: يا رسول الله من هم؟ قال: **«هم أهل القرآن أهل الله وخاصته»**[(٢)].

٢- حديث جابر رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد ثم يقول :أيهم أكثر أخذاً للقرآن؟ فإذا أشير إلى أحدهما قدمه في اللحد[(٣)].

٣- عن أبى موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن من إجلال**

---

(١) رواه الترمذي: (٢٨٧٦) وقال حديث حسن، وابن حبان: (٢١٢٦) وصححه، والبيهقي: (٨٧٤٩).

(٢) رواه أحمد في المسند عن أنس: (١١٨٨٣)، والدارمي في سننه: (٣٣٢٦)، وابن ماجه: (٢١٥)، والبزار: (٧٣٦٩)، وانظر: صحيح الجامع ٢١٦٥.

(٣) رواه البخاري عن جابر بن عبد الله: (٤٠٨٠).

الله إكرام ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه وإكرام ذي السلطان المقسط»[١]. (إن من إجلال الله) أي تبجيله وتعظيمه، (غير الغالي فيه) الغلو التشديد ومجاوزة الحد (والجافي عنه) أي وغير المتباعد عنه المعرض عن تلاوته وإحكام قراءته ومعرفة معانيه والعمل بما فيه.

٤- صاحب القرآن يلبس حلة الكرامة وتاج الكرامة كما في حديث أبى هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «**يجيء صاحب القرآن يوم القيامة، فيقول: يا رب حله، فيلبس تاج الكرامة. ثم يقول :يا رب زده فيلبس حلة الكرامة، ثم يقول: يا رب ارض عنه، فيقال اقرأ وارق ويزاد بكل آية حسنة**»[٢].

٥- القرآن يرفع صاحبه قال عمر رضي الله عنه: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين**»[٣]. (يرفع بهذا الكتاب): أي بقراءته والعمل به (ويضع به): أي بالإعراض عنه وترك العمل بمقتضاه.

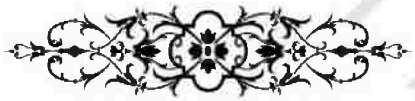

(١) رواه أبو داود عن أبي موسى الأشعري: (٤٨٤٣)، والبيهقي في السنن الكبرى: (٨ / ١٦٣)، وانظر: صحيح الجامع: (٢١٩٩).

(٢) رواه الترمذي عن أبي هريرة: (٢٩١٥)، وانظر: صحيح الجامع: (٨٠٣٠).

(٣) رواه مسلم عن عمر: (٨١٧).